***محاضرة 07:***

***نظريات سوسيولوجية في الفن:***

تمهيد: يعتبر الفن من المنتوجات التي ينتجها الأفراد ,والذي يعكس أوجه الحياة المختلفة للمجتمعات ومراحل تطورها ,لذلك نجد الرواد من علماء الاجتماع قد إستخدموا الفن كمادة معرفية لدراسة المجتمعات من حيث التطور على المستوى الاجتماعي والفكري والنفسي والذوقي لهم ,ولذلك فالفن يعتبر أحد الظواهر الاجتماعية السائدة في المجتمع والتي تعبر عن سيرورته ونموه وتطوره وحالة أفراده النفسية والاجتماعية والثقافية عبر مختلف المراحل الزمنيةّ, إنطلاقا من هذا التوصيف عمد الرواد الأوائل لعلم الاجتماع طرح نظرياتهم ورؤيتهم للفن ومن بين هؤلاء الرواد السوسيولوجيين ما يأتي:

***1- نظرية العلامة عبد الرحمان ابن خلدون (1332-1406):***

حيث يرى ابن خلدون أن الإبداع الفني صفة مكتسبة وليست موروثة عند الفنان إدقال في هذا الخصوص والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته على نسبة الأصل, تكون الملكة ونقل المعاينة أوجب وأتم من نقل الخبر والعلم ثم وضع إبن خلدون شروطا تهيء للفنان وضعا نفسيا وجسديا تؤهله لتقديم إبداعة الفني[[1]](#footnote-2) ومن بين هذه الشروط التي يراها ابن خلدون ضرورية حتى يتمكن الفنان من الإبداع الفني لما ينتجه, ويكون معبر عن طبيعة البيئة الاجتماعية والثقافية وكذلك الحالة النفسية لما يعيشه الفنان وشعبه وهي كالتالي:

1- قناعته بموضوعه الفني.

2- تعلقه النفسي بموضوعه الفني.

3- أن تكون قريحته نشطة بلذة سارة.

4- بعد نهوضه من نوم مريح.

5- فراغ معدته من الطعام.

6- جمال مكان عمله.

7- الخلوة.

والملفت للانتباه أن ابن خلدون يرى أن النسق الفني لا يستطيع أن يستقبل بذاته داخل البناء الاجتماعي عن باقي الأنساق الأخرى إلا إذا استغنى صاحب الدولة عن النسق العسكري وكنسق معزز ومدعم للنسق السياسي, وهذا لا يحصل إلا بعد أن يثبت الحاكم أقدامه في أنساق البناء الاجتماعي, أو في حالة ضعفه في سلطته أو في نهاية حكمه عندئذ يعتمد اعتمادا كاملا على النسق العسكري ويجعل من النسق الفني خادما له ومنفذا لأهدافه السياسية والعسكرية وليس الفنية.

إن سياق الحديث عن نظرية ابن خلدون في الفن لا يجب إغفال تمييزه بين نوعين رئيسيين من الفنون وهما حسبه الفنون الكمالية والفنون الضرورية[[2]](#footnote-3).

فالفنون الكمالية تضهر من خلال اكتمال دواعي الحياة الصحراوية بالضروريات اللازمة للعيش في المحيط الصحراوي الذي لا يستلزم ولا يتطلب جودة في الصناعة الفنية وما موجود منها في الحياة البدوية تكون مقصودة لغيرها وليس لذاتها, بمعنى تكون الحاجة الاجتماعية للصناعة الفنية في المجتمع البدوي غير مستلزمة الدقة والأناقة في صناعتها لأنها غير مطلوبة بإلحاح واستمرار, بل حسب الظروف التي تفرزها أنساق البناء الاجتماعي النشيطة والحيوية, وبالذات النسق المحوري مثل النسق القبلي العشائري من أجل خدمة أغراضه وأهدافه وحاجاته, ولذلك تكون الصناعة الفنية في هذا المجال الاجتماعي تمثل الجانب الكمالي وليس الضروري في الحياة حسب رؤية ابن خلدون[[3]](#footnote-4)

بينما تتطلب الحياة المدنية, الحضارية التي تتصف بالترف وتكاثر الصنائع والفنون والألوان, الدقة والأناقة والجودة في صناعتها وفنها لأنها مقصودة لذاتها وليس لغيرها, بمعنى أوجدتها حاجات الأنساق البنائية المتكاملة وضيفيا مثل تكامل النسق الاقتصادي مع السياسي والاجتماعي والتربوي على الرغم من استقلالها, ويكون لكل نسق حاجاته الفنية الخاصة به, مثل النسق الاقتصادي يتطلب مثلا أنواعا من الفنون الخاصة به كفن الدعاية والاعلان والإشهار, كما أن للنسق الثقافي كذلك فن خاص به, وكل نسق من هذه الأنساق نظام فني خاص بها متباينة على بعضها البعضّ, ولذلك فالوضعية الاجتماعية من خلال الأنساق المكونة للمجتمع هي التي تفرض الحاجة الفنية وأهميتها حتى يكون النسق تام وكامل وقادر على آداء الوظيفة المنوطة به[[4]](#footnote-5), ومنه فالفن في المجتمعات الحضارية ضرورة وليس ترف كما هو في المجتمعات البدوية حسب ابن خلدون وهذا ما ذهب إليه في مقدمته حيث يقول " وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات, كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله, من جزار وذباغ وصائغ وأمثال ذلك, وقد تنتهي هذه الأصناف إذا استبحر العمران إلى أن يوجد بها الكثير من الكمالات والتأنق في الغاية, وتكون من جوه المعاش لمنتحلها بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال لما يدعو إليه الترف في المدينة[[5]](#footnote-6) لذلك فابن خلدون ينطلق من رؤية فلسفية للفن ممثلة في المنفعة, ومن هذا المنطلق ميز ابن خلدون بين الفن في المدينة والفن في البادية وحاجته الأساسية في كل منهما يختلف من منطقة لأخرى, ومن هذا المنطلق حدد مجموعة من الوظائف للفن انطلاقا من رؤيته وفلسفته للفن نجملها فيما يلي:

1-ملأ أوقات الفراغ بصورة نافعة على نحو يدخل السرور والمتعة إلى القلب.

2- زيادة الترف والمتعة.

3- اللهو واللعب.

4- اكساء العقل واغناء التجربة.

***2- نظرية فيكو( عالم اجتماع ايطالي (1668-1744)).[[6]](#footnote-7)***

يعتبر فيكو من خلال نظريته في الفن بأنه ظاهرة اجتماعية ينطبق عليه ما ينطبق على المجتمع بشكل عام فالفن حسبه يخضع لنفس القوانين التي يخضع لها المجتمع كله, فهو يعتبر أن المجتمع البشري وكذلك الفن مروا بثلاث مراحل هي:

1- مرحلة الألهة : التي ساد فيها حسب فيكو الخوف والرعب مما دفع الناس إلى تصور الأرواح الخفية ولذلك تشبعت عقلية الإنسان وكذلك الفن بروح الخرافة, وأصبح الفن لا هويتا أسطوريا في نزعته, حيث يعتبر أن الفن ينطلق في تعبيراته وتفسيراته للمحيط الاجتماعي من خلفية ما ورائية حسبه نابعة من الخوف والرهبة من الإله.

2- مرحلة الأبطال حيث كان الفن هو وسيلة لتمجيد الأبطال والسادة وهذا ما نجده في الفن اليوناني والفن الروماني.

3- مرحلة الحرية: هي المرحلة التي سادت فيها الحقوق المدنية والسياسية وفي هذه المرحلة أصبح الفن هو وسيلة التعبير عن الحياة اليومية.

***3- نظرية أجست كونت(1798-1857):***

صاحب قانون الحالات الثلاث في مراحل تطور الفكر الإنساني والتي أوجزها فيما يلي:

- المرحلة اللاهوتية

- المرحلة الميتافيزيقية.

- المرحلة الوضعية.

يذكر كونت أثره في الفنون الجميلة ولم يكن هذا الأثر جافا حيث لابد أن تروق للخيال عقيدة وهبة الحياة للكون كله, وقد نشأت كل الفنون الجميلة في تلك الحقبة وكان الشرك هو الثغر الثاني لمرحلة اللاهوتية مواتيا كذلك للفنون , وقد دفع الشرك الخيال والعاطفة فوق العقل واتخد الفنون ليترجم فلسفته الدينية لجمهور الناس بشكل حسي, وكلما أدخل معبود جديد أضفت عليه الفنون هيئة وتاريخ يتلاءم مع وظيفة قاعدة الشرك بتوفره الظروف المواتية لتقدم الفن على السمو به إلى مكانة عالية أما التوحيد وهو الطور الثالث من المرحلة اللاهوتية, فقد ارتفع بالفنون إلى مكان أعلى وهنا يقول كونت بأن ملاحم ومسرحيات ملتن واريوستو وشكسبير وكورني وموليير إنما هي أعمال لا مثيل لها, والموسيقى التي لم يكن فيها تآلف هارموني, بل كانت مجرد ألحان بسيطة رتيبة وكان ادخال الهارمونية وتدوين العلامات الموسيقية والآلات مثل الأرغن من منجزات العصور الوسطى.

ورأى كونت أن المجتمع في المرحلة الميتافيزيقية يمر بحالة عقلية حرجة سلبية غير مواتية للفن وكان إحياء الفن الكلاسيكي في القرن الخامس عشر حرجة لازمة وقيمة من بعض الوجوه وخاصة التي تساعد على تحطيم التفكير اللاهوتي ولكنها كانت انتكاسا من حيث الإفراط في الاعجاب بالقدامى[[7]](#footnote-8).

فالفن بالنسبة لكونت هو العرض المثالي للحقيقة وهدفه أن يربي فينا حاسة إدراك الكمال وحين يفسر العلم الحقيقة فإن الفن يضفي عليها جمالا وبهاء وكلاهما يتطور حيث تبدأ تأملاتهما بالأشياء البسيطة في العالم الخارجي ثم ترتفع تدريجيا إلى الحقائق المعقدة في الطبيعة البشرية.

***- نظرية كارل ماركس(1818-1883)[[8]](#footnote-9):***

تؤكد نظرية ماركس على دور البيئة وبخاصة الاجتماعية والاقتصادية في تحديد الخصائص الأساسية في الفن, فالتغيرات في البيئة كما هو شأن الثورة التي تعيد توزيع الثروة والسلطة تجنح إلى تبديل أشكال التعبير الثقافي جميعا, إن طراز الفن ونوعيته في أي زمن لا ترجعان إلى أي إلهام خارق في الطبيعة أو سمو عنصري فطري بل أن الأحوال الإجتماعية تستطيع أن تهيأ للفن موضوعاته واتجاهاته العامة إلى أن هناك مجالا واسعا للتنوع الفرديّ, ويذهب ماركس إلى أن الفن يجب أن ينطوي على حيوية وخيال وشكل ومهارة وإعجاب بكثير من فناني العهود الماضية لأنهم وفقوا في التعبير عن المثل العليا للإنسانية الصالحة.

***- نظرية إرنست كروس[[9]](#footnote-10)***

عالم الإثنولوجيا وعلم الاجتماع ولد سنة 1993 في ألمانيا له مؤلف في بدايات الفن دعا إلى المزيد من الاهتمام بالفن البدائي, لا لدوره الهام في التطور الثقافي بحسب ولكن بسبب بساطته النسبية كذلك, حيث يعتبر أن وحدة الفن البدائي ظاهرة تتعارض إلى أقصى حد من تنوع الشعوب البدائية.

***- نظرية هربرت سبنسر(1820-1903):[[10]](#footnote-11)***

يرى سبنسر أن تطور الفنون كان ولابد أن يظل جزءا مكملا لتطور الكون بما في ذلك العقل والمجتمع والحضارة واستشهد بأمثلة من تاريخ كثير من الفنون الجميلة والفنون التطبيقية المختلفة, البدائية والحديثة ليظهر أن نفس النزعات التطورية حدثت فيها, كما حدثت في ارتقاء الحيوان والنبات والأشكال الاجتماعية الأخرى وكان الفن يسير إلى الأمام من خلال التطور والتقدم الذي يعيشه المجتمع البشري.

***- نظرية إميل دوركايم(فرنسي 1858-1917):***

يعتبر ايميل دوركايم أن الفن ظاهرة اجتماعية وأنه انتاج نسبي يخضع لظروف الزمان والمكان وهو عمل له أصول خاصة به, وله مدارسه ولا يبني على مخاطر العبقرية الفردية وهو اجتماعي أيضا من ناحية أنه يتطلب جمهورا يعجب به ويقدره, وعلى هذا فالفنان في نظر دوركايم لا يعبر عن الأنا بل يعبر عن النحن أي عن المجتمع بأسره ولا يتم ذلك عن التأمل الشعوري بل عن طريق الإختمار اللاشعوري وهو ما يشبه الحمل الفني نتيجة الإخصاب الذي تم عن طريق المجتمع.

***- نظرية بيترم سوركن( أصل روسي 1889-1968):***

يؤكد سوركن على وجود تناوب بين أساليب الفن التصويرية والمثالية والحسية, والأسلوب الأول يغلب عليه الدين أما الثاني فهو ديني دنيوي, أما الثالث فهو دنيوي وشكلي.

***خــــــــــــــــــــــلاصــــــــــــــــــــة:***  هذه بعض من نظريات وتصورات علماء الاجتماع حول الفن باعتبارهم من الرواد الذين لهم رؤية حول المجتمع وأهم حاجاته الاجتماعية والثقافية والفنية....

1. معن خليل عمر: علم اجتماع الفن, دار الشروق للنشر, عمان,2000,ص203. [↑](#footnote-ref-2)
2. نفس المرجع,ص204. [↑](#footnote-ref-3)
3. نفس المرجع,ص206. [↑](#footnote-ref-4)
4. نفس المرجع,ص206. [↑](#footnote-ref-5)
5. نفس المرجع,ص207. [↑](#footnote-ref-6)
6. نفس المرجع,ص208. [↑](#footnote-ref-7)
7. نفس المرجع,ص209. [↑](#footnote-ref-8)
8. نفس المرجع,ص211. [↑](#footnote-ref-9)
9. نفس المرجع,ص211. [↑](#footnote-ref-10)
10. نفس المرجع,ص213. [↑](#footnote-ref-11)